William Al-Khuli, "Between Science and Religion", *Sunday School Magazine* vol. 1, no. 11 (Feb 1948), p. 8–10.

بين العـــلم والدين

حقائق الدين — بعكس الفلسفة والعلوم — ليست وليدة عقل بشرى معرض للزلل أو القصور ، وإنما هى حقائق خالدة منزهة عن الخطأ تكلم بها الله .

لست أقلل من قيمة العقل ، ولا أحط من قدر الفلسفة أو أنكر أهمية العلوم ، فإن العقل هو الميزان الصادق الذى أعطانا الله إياه لنفرق بين الحق والباطل مميزين أقوال الله عن الخرافات والأضاليل . غير أن للعقل البشرى حدوداً وآفاقا معينة يضل العقل إن جاوزها . ثم إن المنهج العلمى ، أعنى طريقة العقل فى استنباط العلوم لا تخلو من الضعف ، إذ يقوم العلم على التجربة والمشاهدة ثم استنباط قوانين عامة من هذه المشاهدات ، وكثيراً ما تفوت العلم نقط فيعمم القوانين التى استنبطها ويطبقها على نواحى لا تنطبق عليها . بل أكثر من ذلك أن القوانين التى يستنتجها العلم رغم صحة التجارب والمشاهدات قد تكون فى كثير من الأحيان غير صحيحة ، ولا يجوز تسميتها قوانين يقينية ولكنها فروض معقولة يجوز خطأها أو صحتها . .

وكذلك لم تخل الفلسفة من الوقوع فى الزلل رغم سعة آفاق الفيلسوف وسمو تفكيره ومراعاته المنطق المسلسل الصحيح . فقد يبدأ تفكيره المنطقى بأسس ومسلمات غير منطقية ، وقد ينزع إلى تعميم فكرته على موجودات لا يجوز تطبيقها عليها .

فأن كانت حقائق الدين بسيطة صريحة يقينية معصومة من الخطأ ، فليس من الصواب ولا مما يخدم الدين أن نحشر فيه معلومات علمية أو فلسفية معقدة لا نضمن صحتها . وهذا خطأ كثيراً ما وقع فيه مؤلفون فى عصور مختلفة ، وكلما قلت ثقافة الكاتب فى الموضوعات الدينية إزداد اهتمامه بحشر العلم والفلسفة فى كتاباته ظناً منه أن فى ذلك سمواً بكتابه وربما كان ذلك راجعاً إلى نوع من الشعور الدفين بجهله يريد أن يغطيه بما يدونه من معلومات علمية فى كتابه . وإننا لنشعر بعظمة آبائنا أعلام العصور المسيحية الأولى ، وهم الذين نالوا قسطاً وافراً من الفلسفة والعلوم العالية ، حينما نتصفح مؤلفاتهم فنحس بالقوة تتدفق من عباراتها برغم بساطتها وخلوها من النظريات الفلسفية أو العلمية العقيمة . ويكفى أن نتصفح كتابا للقديس أثناسيوس الرسولى مثلا أو غيره من الآباء فنلمس قوة الدين فى بساطته .

أما الكتب التى تخلط بين العلم والفلسفة والدين خلطاً عقيما ، كبعض

المؤلفات اللاهوتية الحديثة ، فكثيرا ما تخطىء فى حق الدين والعلم والفلسفة على السواء ، بل كثيراً ما يكون الكاتب قليل الثقافة فى هذه جميعها ، فإن قرأ مؤلفه متطلع فى الدين عارضه ، وإن قرأه عالم سخر منه وإن تصفحه فيلسوف خجل من خلطه .

است أرمى إلى الفصل بين العقل والدين ، فالعقل البشرى والمنطق السليم هما كما قلت خادمان للحقيقة ، ومصدر الدين ومصدر العقل واحد ، وهو الله . فلا بد أن يبحث الكاتب الدينى فى الدين بحثاً منطقياً عقلياً على شرط ألا يتورط فى أبحاث علمية لا داعى لها ، وألا يدس الفروض العلمية أو الفلسفية القابلة للخطأ كأنها حقائق يقينية يثبت بها حقائق الدين . فمثلا كان بعض فلاسفة اليونان فى القرون السابقة للميلاد يرجعون المادة إلى عناصر أو طبائع أربعة : الماء والنار والهواء والتراب ، وعاشت هذه الخرافة الفلسفية إلى القرن السابع عشر حينما أرجع علماء الكيمياء الحديثة المادة إلى ذرات عناصر يبلغ عددها بضعة وتسعين عنصراً . ثم تقدم العلم فى القرن الأخير فارجع تكوين المادة إلى الكترونات والبروتونات . ثم عادوا أخيراً فقالوا إن الوجود كله ، ماديا كان أو غير مادى ، عنصراً واحداً هو «الموجه» فان هناك تموجات ومنها تتألف المواد والأضواء والحرارة وربما العقل والأفكار .. وهكذا تتغير النظريات العلمية يوما بعد يوم ، وما يظن أنه نظرية صحيحة فى عصر يصبح خرافة فى عصر آخر ، فكيف تضع الدين فى يد هذه المعتقدات المتغيرة ، ماذا تكون نظرتنا نحن الآن إلى كتاب دينى قديم نراه يسلم بنظرية الطبائع أو العناصر الأربعة ويبنى عليها نتائج دينية بينما نسخر نحن اليوم من هذه النظرية وماذا تكون نظرتنا غداً إلى كتاب دينى يثبت حقائق دينية أو نفسية بنظرية علمية نؤمن بها اليوم بينما نسخر منها غداً . أما كان خيراً للدين أن يبرز وحده بقوته ويقينيته وبساطته مجرداً من هذه النظريات العقيمة غير الموثوق بها .

وإن كنت قد تحدثت عن علاقة العلوم بالدين فهناك علم له أهمية خاصة من هذه الناحية ، وهو علم النفس ، وإلى المركز ألهام الذى يحتله علم النفس الحديث الآن فى سائر الميادين .

لقد كان علم النفس قديماً جزءاً من الفلسفة ، وكان بحث بعض الفلاسفة فيه أقرب إلى التخبط منه إلى البحث العلمى الصحيح ، إذ كان هذا البعض يبنى أقواله فيه أحياناً على فروض فلسفية مغلوطة . أما فى العصر الحديث فقد استقل علم النفس عن الفلسفة وصارت دراسة النفس دراسة علمية مبنية على التجربة والاختبار الصحيح

ولـكن نظراً إلى ارتباط موضوع علم النفس بالفلسفة فلا زالت بينهما علاقات ، حتى أن علماء النفس الآن يمكن تقسيمهم إلى فريقين : فريق يبحث فى علم النفس بحثاً علمياً موضوعياً خالياً من أى تأمل باطنى أو افتراض فلسفى ، وفريق يجمع بين المنهجين الفلسفى والعلمى . ومن أمثله الفريق الأخير كثير من العلماء الذين تحتل نظرياتهم عند البعض الآن مكانة ظاهرة ، أمثـال فرويد (مؤسس مدرسة التحليل النفسانى) وأدلر (مؤسس علم النفس الفردى) وغيرهما .

وما قلته عن خطأ الخلط بين العـلم والدين يقال بنوع خاص عن الخلط بين علم النفس والدين ، لأن علم النفس لا زال علماً ناشئاً ولا زالت فيه نظريات متضاربة ، ولا سيما بين أصحاب الفريق الثانى الذى يمزج العلم بالفلسفة فى دراسته للنفس .

ولـكن علم النفس من الناحية الأخرى يدرس الانسان دراسة علمية قيمة ويخرج بكثير من الحقائق الهامة ذات القيمة العملية الـكبيرة فى الحياة ، فلا يجوز أن نغض من قيمة علم النفس . وإن كان الـكتاب يأمرنا أن نختبر ذواتنا ونمتحن نفوسنا فلا شك أن عـلم النفس هو صورة منظمة من صور اختبار النفس ومعرفتها . وإن كانت للخبرة والمران أهمية عظمى عند الراعى وعند الباحث فى أمور الدين وعند الأفراد فى حياتهم الروحية ، فلا شك أن دراسة النفس هى نوع من الخبرة والحنكة فى هذا الميدان .

فـكما أن العقل والمنطق ضروريان فى الأبحاث الدينيـة على شرط ألا يعتمد الـكاتب على مجرد العقل والمنطق دون النظر إلى الوحى الأعلى ، وعلى شرط ألا يتورط الـكاتب فى الافتراضات والنظريات غير اليقينية أو يحلها محل الحقائق اليقينية ، هكذا من النافع بل لعله من الضرورى أن يعـالج الـكاتب الدينى موضوعاته معالجة سيكولوجية على شرط ألا يحل عـلم النفس محل الدين كأن يعلم النفس وحده خلاصاً أو إصلاحاً للنفوس دون وحى الله وتعاليمه ووسائل نعمته وأسرار كنيسته إلخ ، وعلى شرط ألا يتورط فى النظريات السيكولوجية التى قد يظهر يوما خطأها ، بل يكتفى بالحقائق المنطقية الأكيدة (١)

وإنى أختم هـذه الـكلمة بالتقدم إلى بعض الـكتاب فى مجلاتنا الدينية راجياً ألا يزجوا بنظريات فرويد أو غيرها من النظريات العلمية والفلسفية فى تلك المجلات وألا يتورطوا فى أبحاث لن تخدم العلم ولا الدين .

الدكتور وليم الخولى

[١] تراعى مجلة مدارس الأحد هذه النقط حيث تبحث الـكثير من موضوعاتها بحثاً علمياً أو فلسفيا (سيكلوجيا) دون الأخذ بنظريات معينة غير يقينية . وستطبع المجلة بنعمـة الله عما قريب رسالة عنوانهـا « الشخصية المتكاملة » تعالج نفس الانسان ووسائل البلوغ بهـا الى مراتب الـكمال على هذا النهج الروحى السيكلوجى .